**المحاضرة 10: العولمـة: اللغات والهويات**

تحمل العولمة في إحدى تعبيرات المسألة الثقافية والهوياتية الكونية، بل هي نموذج فريد لتطور الثقافة ومحاولة توحيدها وفق نمط معين ووحيد، حيث تلازمت في وجودها وتطورها مع التسارع الهائل الذي عرفته الحضارة الغربية بمختلف تكويناتها العلمية والفكرية والمادية والمعنوية، فأضحت العولمة التعبير الجلي لنموذج ثقافي متقدم ومتسارع الخطى لم يسبق أن عرفت له البشرية نظيرا.

إن العولمة اليوم بتشعباتها واتجاهاتها ليست إلا مظهرا ثقافيا للحالة الإنسانية التي تتعاظم يوما بعد يوم من وجهة النظر الأنتروبولوجية، بل إن هذا النموذج الإنساني يتغير ويتحدد وفق المعطيات السابقة لحالة الوجود والتغيّر والتطور الذي تشهده البشرية في مراحلها التاريخية المختلفة، حيث أن التراكم الثقافي، العلمي والتطور الفكرية والتاريخي للإنسان أفضى في النهاية إلى إنتاج هذا الشكل الثقافي والتاريخي، بل أن البعض عبّر إعجابا بالعولمة أنها تشكل نهاية التاريخ البشري حسب العالم الأمريكي فرنسيس فوكوياما.

1. **ماهية العولـمة:**

ليس للعولمة تعريفا محددا وواضحا، حيث يتميز مفهوم العولمة بالغموض والتعقيد، وعدم التناسق بين النظرية والواقع، فإذا كانت العولمة تشير إلى مجموعة من التطورات التي جاءت بعد الحرب البارة، وتهدف إلى إزالة الحدود والفواصل بين دول العالم ، إلا أن الجانب التنظيري بقي مختلفا عن هذه التطورات، ولم يساير ما حدث على الساحة العالمية عن تغيرات ومنعطفات تاريخية هامة.

فالعولمة في نظر بعض المفكرين هي "العملية التي بمقتضاها يتم إلغاء الحواجز بين الشعوب وتنتقل من حالة الفرقة والتجزؤ إلى حالة الاقتراب والتوحد، ومن الصراع إلى التوافق"، كما عرفها البعض بأنها "مرحلة جديدة من مراحل تطور الحداثة، تتكاثف فيها العلاقات الاجتماعية على الصعيد العالمي بروابط اقتصادية، ثقافية، وسياسية، والتي لا تعني إلغاء المحلي واستبداله بالعالمي، أو استبدال الداخل بالخارج، وإنما تعني إضافة بعد جديد لما هو محلي، بحيث يصبح العالم الخارجي بنفس حضور العامل الداخلي في تأثيره على الأفراد والمجتمعات. ([[1]](#footnote-1))

وتمثل العولمة مفهوما يتميز بالجدلية، وقد صار من المفاهيم المركزية المرتبطة بالإشكالات الخاصة بالقضايا المعرفية، وذلك بالنظر إلى شيوع مفاهيم أخرى بديلة أطلقت على معناها مثل: الكونية، الشمولية، الأمركة، والتغرب.

حقا اختلفت التعريفات، حيث يبقى مفهوم العولمة هلاميا وغير محدد بعد، وهذا حال كل المفاهيم الجديدة التي تختلف في تحديدها من حقل معرفي إلى آخر، لكن أغلب المفاهيم المحددة للعولمة تلتقي عند مفهوم أنها عبارة عن تطور تاريخي وموضوعي، وأنها ليست سلبية أو ايجابية في حدّ ذاتها، بل ينبغي استغلال هذا الوضع الجديد لصالح الإنسان والبشرية برمتها بالاحترام المتبادل للثقافة والهويات المختلفة باعتبارها المقدمة الأولى لإقامة عالم يعتمد على التوازن فيما بين الخصوصيات والتجارب، مع التسليم بأن تنوع الثقافات والهويات هو الضامن الأكبر للإبداع الإنساني الخلاق.

ورغم هذه الدعوات، فإن الواقع اليوم يدعو إلى تصحيح مسار العولمة في ظرفها الراهن الذي ينعكس فيه موازين القوى السياسية الدولية، وهو ما أعطى العولمة اليوم هذا الوجه القبيح الذي حوّلها إلى هيمنة يتسيّد فيها نموذج واحد على حساب النماذج الأخرى، فبدلا من أن تتيح العولمة تعددية متسعة الأفق، اختزلها فاعلوها الأساسيون في حروب المصالح الاقتصادية بين الشركات المتعددة الجنسيات، وأصبح الحال ساحة حرب بين الغرماء أو الشركاء.

* **حلم الحضارة الإنسانية الواحدة:**

وبالرغم من الفوضى التي تميّز العولمة، والتي أسفرت عن عيوب جمة، فإنه لا يمكن التنصل من حقيقة أساسية تؤكد واحدية الحضارة الإنسانية، فماضيا كان يمكن التمييز بين الحضارات القديمة المختلفة بحكم تباعدها وعدم اتصالها جغرافيا وتاريخيا، أما اليوم فإن المعطيات الجيو-سياسية الحديثة، وثورة الاتصالات التي ألغت الحدود بين الدول والشعوب، وإشكاليات البيئة التي ربطت بين بقاع الأرض ووحدة مصير الكوكب، عملت على سيادة حضارة واحدة كان يمكن لها أن تكون ملكا للبشرية جمعاء، وليست حكرا على أحد، إذ ساهمت جميع شعوب المعمورة من أقصاها إلى أقصاها في تشكيلها بالجهد والعرق والدم، وبالعلم والمال...الخ ([[2]](#footnote-2))

1. **إشكالية اللغة والهوية في ظل العولمة:**

في ظل العولمة اليوم، تظهر اللغة والثقافة المحليين مهددتين بشكل كبير، حيث تسقط اللهجات واللغات عند حدود لغة عالمية واحدة، وتتراجع الهويات والإثنيات عند الهوية العالمية الواحدة، فهل حقا سقط الاختلاف اللغوي والهويات في ظل العولمة الثقافية واللغوية؟

وتظهر مخاطر العولمة على الهوية الثقافية كمقدمة لمخاطر أعظم على الدولة الوطنية، وعلى الثقافة المحلية، حيث تعني مزيدا من تبعية الأطرف إلى المركز تجميعا لقوى المركز وتشتيتا لقوى الأطراف بما في ذلك الدولة الوطنية التي قامت بدور التحرر الوطني، وتحديث المجتمع، وتقذف عليها مفاهيم جديدة أشبه بالسوط على ظهر من لا يدخل بين الطاعة في نظام العالم الجديد، كحقوق الإنسان، وحقوق الأقليات، حقوق المرأة...الخ وانتشرت البحوث عن الأقليات العرقية والطائفية من أجل إبراز الخصوصيات والهويات، ووحدة الوطن والتاريخ، ووحدة المصير. ([[3]](#footnote-3))

وهنا يبرز سؤال مشروع ما الذي يميّز الثروات الثقافية عن التراث الاقتصادي في ظل العولمة اليوم؟

من خلال هذا التساؤل يظهر أن المعلومات والأفكار والإيديولوجيات والمعارف، واللغة، والديانات هي رموز وعلامات، إلا أنها ثروات أيضا تم إنتاجها من قبل الأفراد والجماعات، وهي تنتشر بواسطة أفراد آخرين أو جماعات أخرى، وهي تستهلك من قبل جماعات ومجموعات، وإثنيات وثقافات، بنهاية المطاف من قبل أفراد إذ يتعلق الأمر بثروات "لامادية" تنطوي على ظاهرة الإقناع، وعلى ما يترتب عنها من نتائج مثل الإيمان والانتساب إلى رسالة أو إلى ثقافة معينة، وانتشار الملفوظات بشكل خطابات، ولغات أو لهجات وتكوّن الهوية داخل حدود الثقافة الواحدة. ([[4]](#footnote-4))

إن البعد الثقافي للعولمة يتشكل ضمن دائرة القيم الرمزية، من اللغة والعادات والأفكار، وأنماط التفكير، وانتقالها من الهوية ذات الخصوصية الإقليمية، وتجاوزها إلى ما وراء الحدود وتوجيه الأفكار والقيم، وضرورة الانتهاء إلى ثقافة عالمية واحدة، لكن الواقع يؤكد بما لا يدع مجالا للشك بأنه ليس هناك ثقافة عالمية واحدة، وإنما توجد ثقافات متعددة ومتنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية، وتحمل خصوصيتها، ومقاومتها الخاصة لمحاولات الهيمنة أو التأثير العنيف.

وبالرغم من أن تعدد وتنوع اللغات تعد مسألة ايجابية وأمر ضروري للإنسان، ويضمن الحفاظ على التواصل الإنساني والتفاعل الحضاري إلا أن العولمة اللغوية والثقافية وتعاظمها يوما عن يوم باستخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، هو في حد ذاته تكريس للأحادية اللغوية والثقافية، فيكون للثقافة الغربية الموقع الأفضل والمتقدم في العالم، وللغة الانجليزية الفضل في التطور ضمن عالم السياسة والمال والتجارة، وحتى الثقافة وهذا يعد هدفا تعمل من أجله العولمة اللغوية المكرّسة للأحادية العالمية.

1. **ضد الاختراق أولا، والانفتاح ثانيا:**

تظهر اليوم الحاجة ملحة للاحتماء من الآثار المدّمرة للعولمة، وخاصة ما تعلق منها بالخصوصية الثقافية واللغوية والهوياتية، للعالم العربي والعالم الثالث، لأن هاذين العالمين هما الطرف الأضعف في معادلة التأثير والتأثر، فالذي لا يملك ناصية العلم والتكنولوجيا لا يمكن له أن يكون طرفا لاعبا أو مؤثرا، ومنه يصبح صدّ الاختراق والتأثير ساحة حرب بالنسبة للفاعلين المؤثرين ضمن نظام العولمة، فالعولمة كمنهج سياسي وثقافي واقتصادي استطاع أن يترك آثاره في العالم أجمع، كما في الوطن العربي المهدد بالتقسيم والتفرقة، والاختراق اللغوي، والهيمنة الثقافية واللغوية التي بدأت تظهر ملامحها بقوة في العديد من البلدان العربية وغيرها، وهنا تظهر الحاجة في إعادة النظر في أنماط تفكيرنا الثقافي والعلمي واللغوي، ومواجهة المدّ العولمي بتعزيز الثقافة المحلية، والتمكين للغة العربية الأم في المناهج العلمية والدراسية، فالنجاح في المستقبل لا علاقة له بالنجاح في اللغة بالضرورة، بل يتعلق الحفاظ على اللغة الأم، وتطويرها بجعلها لغة العلم واكتساب المعارف، ولغة التفكير العلمي، وهنا تنتشي الثقافة وتزدهر باعتبار العامل اللغوي، والذي يعد أهم عامل لازدهار الثقافة وتطورها، واتجاهها نحو المستقبل.

في المقابل فإن ضعف اللغة وهو واقع لا ينكر هو فرع من ضعف الحياة العقلية والثقافية، وبالدرجة الأولى الحياة العامة في صورها المتعددة، ولما تكون القضية بهذا الحجم، وعلى هذه الدرجة من الخطورة، فإن الأمر يتجاوز دائرة الأزمة اللغوية أو الثقافية إلى دائرة الأزمة الحضارية بتعقيداتها وتشعباتها، وأبعادها السياسية، والأمنية والفكرية، لذلك فإن انحسار أي لغة، -ومنها اللغة العربية- كان في الحقيقة الثمرة المرة لانحراف أهل هذه اللغة نحو مأزق أبعدهم عن مصادر القوة الحقيقية، التي تتمثل في قوة الروح، وقوة الفكر، وقوة الإرادة وتحصين الذات، وفي حماية الكيان الثقافي من أي اختراق خارجي، ولأن الطبيعة لا تقبل الفراغ، تشجعت القوى الخارجية من أجل فرض لغتها وثقافتها على الشعوب غير القادرة على حماية خصوصيتها، لإيمانها بأن ذلك هو السبيل نحو الاستحواذ على مقدرات هذه الشعوب، وتسخيرها لخدمة مصالحها الحيوية.

1. **()**- غربي محمد: تحديات العولمة وآثارها على العالم العربي، مجلة اقتصاديات شمال إفريقيا، العدد السادس، جامعة الشلف، (د،س،ن)، الجزائر، ص21. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()**- لورينا باريني: دول وعولمة، ترجمة: نانيس حسن ع الوهاب، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2007،ص12. [↑](#footnote-ref-2)
3. **()**- حسن حنفي: الثقافة العربية بين العولمة والخصوصية، مجلة المعرفة، العدد 485، السنة 42، الجمهورية العربية السورية، فبراير2004، ص65. [↑](#footnote-ref-3)
4. **()**- جبرار ليكلرك: العولمة الثقافية –الحضارات على المحك، ترجمة: جورج كتورة، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 2004، ص20. [↑](#footnote-ref-4)